المحاضرة الأولى: أدب الطفل: المفهوم، النشأة والتطور

أولًا: تمهيد

يُعدّ أدب الطفل من المكونات الحيوية في البنية الثقافية للمجتمع، لأنه يخاطب الفئة العمرية الأكثر تأثيرًا وقابلية للتشكّل. فالطفل هو مشروع الإنسان القادم، وأدبه هو الأساس الذي يُبنى عليه وعيه الجمالي، وتكوينه الأخلاقي، وقدرته على الإبداع والتفكير. ومن ثمّ، فإن العناية بأدب الطفل ليست ترفًا فكريًا، بل ضرورة حضارية وثقافية تسهم في بناء الإنسان الواعي المتذوق للجمال والمتمسك بقيم الخير والحقيقة.

ثانيًا: مفهوم أدب الطفل

يُعرّف أدب الطفل بأنه النتاج الأدبي والفني الذي يُكتب خصيصًا للأطفال بهدف الجمع بين المتعة والتربية والمعرفة. فهو خطاب فني موجّه إلى فئة عمرية محددة، تُراعى فيه خصائص النمو العقلي والنفسي واللغوي للطفل، ويتخذ هذا الأدب أشكالًا متعددة، منها: القصة القصيرة، والمسرحية، والحكاية الشعبية المعاد صياغتها، والشعر، والأغاني، والكتب المصوّرة، وأدب الرحلات، بل وحتى بعض الأنواع التعليمية ذات الصبغة الجمالية.

ويتميّز أدب الطفل بطابعه التواصلي، إذ إنه لا يقوم على الإرسال فحسب، بل يعتمد على تفاعل القارئ الصغير مع النصّ من خلال التخيّل والتأويل والمشاركة الوجدانية. فالطفل لا يقرأ النص كما يقرأه الراشد، بل يتماهى معه، ويحوّله إلى تجربة ذاتية يعيشها بعفوية، كما أنّ أدب الطفل ينهض على مبدأ التدرّج، فالنص الذي يُقدّم لطفل في السابعة لا يمكن أن يُقدّم لطفل في الثانية عشرة؛ لأن قدرته على الفهم والتصوّر تتطوّر تدريجيًا. لذلك يُقسَّم أدب الطفل عادة إلى مراحل:

1. **مرحلة الطفولة المبكرة (3–6 سنوات):** وتُناسبها القصص القصيرة والأناشيد المصوّرة.
2. **مرحلة الطفولة الوسطى (7–9 سنوات):** وتُناسبها القصص ذات الحدث البسيط والحوار التربوي.

3. **مرحلة الطفولة المتقدمة (10–12 سنة):** وتُناسبها المغامرات والروايات القصيرة ذات البنية الرمزية.

ثالثًا: نشأة أدب الطفل في الغرب

تعود الجذور الأولى لأدب الطفل في الثقافة الغربية إلى التراث الشعبي الذي تناقله الناس شفهيًا عبر الحكايات والأساطير والخرافات، مثل حكايات "ذات الرداء الأحمر" و"سندريلا" و"بياض الثلج". كانت هذه القصص تُروى للكبار والصغار على السواء، ثم أعيدت صياغتها لتناسب عقل الطفل.

مع بدايات القرن السابع عشر والثامن عشر، بدأ التفكير في ضرورة تخصيص أدب للأطفال، خاصة مع ظهور النظريات التربوية الحديثة مثل أفكار جان جاك روسو في كتابه إميل أو في التربية، الذي دعا فيه إلى احترام طبيعة الطفل وميوله، ومن أبرز المراحل التاريخية:

1. **مرحلة التأسيس (القرن السابع عشر):** ظهرت فيها حكايات لافونتين التي اتخذت من الحيوان رمزًا أخلاقيًا وتعليميًا.
2. **مرحلة الحكايات الخرافية (القرن الثامن عشر والتاسع عشر):** مع الأخوين غريم في ألمانيا وهانس كريستيان أندرسن في الدنمارك، حيث تحوّلت القصص الشعبية إلى أعمال أدبية فنية تعكس الصراع بين الخير والشر.
3. **مرحلة المغامرة والخيال (القرن التاسع عشر):** تمثّلت في روايات مثل رحلات جليفر لجوناثان سويفت، وأليس في بلاد العجائب للويس كارول، وجزيرة الكنز لروبرت لويس ستيفنسون، وهي أعمال عمّقت فكرة الخيال والمغامرة بوصفها أداة لتوسيع مدارك الطفل.

ومع الثورة الصناعية وتطور الطباعة والتعليم، صار لأدب الطفل دور أساسي في تكوين الأجيال، فأنشئت مجلات خاصة به، واعتُبر الأدب المدرسي وسيلة من وسائل التربية الحديثة.

رابعًا: نشأة أدب الطفل في الأدب العربي

.1في التراث العربي القديم: قبل ظهور المفهوم الحديث لأدب الطفل، احتوى التراث العربي والإسلامي على نصوص تناسب الصغار وتغذّي فيهم القيم والخيال. من أهم هذه النصوص:

- ✓ كليلة ودمنة لابن المقفّع، وهو نموذج مبكر لتوظيف الحكاية الرمزية لتربية الناشئة على مكارم الأخلاق.
- ✓ ألف ليلة وليلة التي تُعدّ خزينة من الحكايات الخيالية التي غذّت خيال الأجيال.
- ✓ قصص الحيوان والمواعظ والحكم في كتب الجاحظ وابن سينا والغزالي.

الأناشيد التعليمية في الشعر العربي القديم التي كانت تُستخدم في التعليم والتحفيظ.

هذه النماذج لم تكن مكتوبة خصيصًا للأطفال، لكنها احتوت عناصر فنية وتربوية جذبتهم بطبيعتها الخيالية والرمزية.

.2في العصر الحديث

بدأت إرهاصات أدب الطفل العربي الحديث مع حركة النهضة في القرن التاسع عشر، عندما ازداد الوعي بأهمية التعليم ونشأة الطفل ثقافيًا. ومن أوائل الداعين إلى إعداد كتب للأطفال:

- ✓ رفاعة رافع الطهطاوي (1801–1873) الذي دعا إلى إعداد مناهج تربوية تجمع بين اللغة والأدب والمعرفة.
- ✓ علي مبارك ومحمد عبده اللذان أكدا على إصلاح التعليم وتبسيط المعرفة للصغار.
- ✓ أما النواة الفعلية لأدب الطفل العربي فقد تشكّلت في النصف الأول من القرن العشرين، بفضل جهود عدد من الرواد الذين وضعوا الأسس الجمالية والفكرية له، وعلى رأسهم كامل كيلاني وأحمد شوقي.

خامسًا: كامل كيلاني رائد القصة الموجّهة للطفل

يُعدّ كامل كيلاني (1897–1959) المؤسس الحقيقي لأدب الطفل العربي الحديث. فقد أدرك مبكرًا حاجة الأطفال العرب إلى أدب مكتوب بلغتهم الفصحى، يحمل قيَمهم الثقافية، ويُرضي خيالهم في الوقت نفسه.

كتب مئات القصص الموجّهة للصغار مثل عقلة الإصبع، علاء الدين، السندباد البحري، روبنسون كروزو، حيث كان يعيد صياغة القصص العالمية في قالب عربي لغوي بسيط، مع الحفاظ على القيم الأخلاقية والتربوية.

وقد امتاز أسلوبه بالسلاسة، والوضوح، واستعمال الحوار القصصي المحبب للطفل، مع حبكة درامية مشوقة.

سادسًا: أحمد شوقي وشعر الأطفال

يُعتبر أحمد شوقي (1868–1932) رائد الشعر الموجَّه للأطفال في الأدب العربي، فهو أول من أدرك الدور التربوي للشعر في تكوين الطفل العربي، ولقد كتب شوقي قصائد قصيرة موجهة للصغار تجمع بين الموسيقى العذبة والمعنى الأخلاقي الرقيق، وتُغرس في ذهن الطفل بطريقة محبّبة. ومن أبرز قصائده: النحلة الطيّبة، البلبل الغريد، القط والكلب، الديك الحذر، الحمار والثعلب، وقد ميّز شعر شوقي للأطفال عدة سمات:

- ✓ الطابع القصصي التعليمي: فهو يقدّم عبر الحيوان دروسًا في الأخلاق والسلوك الإنساني بطريقة غير مباشرة.
- ✓ اللغة الموسيقية الميسّرة: استخدم أوزانًا قصيرة وإيقاعات سهلة الحفظ، ما جعل قصائده مادة تعليمية في المدارس العربية.
- ✓ تجسيد الطبيعة والحيوان: كانت الحيوانات في شعره رموزًا للعلاقات الاجتماعية، مثل الوفاء، والمكر، والصدق، والغرور.
- ✓ التربية عبر الجمال: لم يكن شوقي يعظ أو يلقّن، بل كان يُربّي الذوق من خلال الإيقاع والصورة الفنية.

وهكذا أسّس أحمد شوقي لمدرسة شعرية موجهة للطفل، جمعت بين الفن والتربية، وجعلت من الشعر وسيلة لغرس القيم عبر الجمال والإيقاع.

سابعًا: مراحل تطور أدب الطفل العربي بعد شوقي وكيلاني

1. **مرحلة التأسيس (1920–1950)**: تميّزت بالتركيز على الأخلاق والتعليم الديني والوطني، وكانت اللغة فصحى مبسطة.

2. **مرحلة الازدهار (1950–1980):** ارتبطت بحركات التحرر الوطني وظهور وسائل الإعلام والمسرح المدرسي. في هذه الفترة ازدهرت مجلات الأطفال مثل سمير وميكي والعربي الصغير.
3. **مرحلة التجديد الفني (1980–الآن):** بدأ أدب الطفل يتجه نحو تنويع الموضوعات، واستعمال التقنيات الحديثة، وتقديم أدب خيالي وواقعي يعكس هموم العصر.

الخاتمة

لقد نشأ أدب الطفل العربي في أحضان النهضة الحديثة، متأثرًا بالتراث العربي من جهة وبالتجارب الغربية من جهة أخرى، لكنه استطاع أن يبلور هويته الخاصة من خلال رواده الأوائل، وعلى رأسهم أحمد شوقي في الشعر وكامل كيلاني في القصة.

فبفضل هؤلاء تحوّل الخطاب الموجّه للطفل من وسيلة تعليمية إلى فنٍّ أدبي قائم بذاته، يعبّر عن وجدان الصغار ويفتح أمامهم أبواب الخيال والمعرفة، ومن ثمّ، فإن دراسة نشأة أدب الطفل وتطوره ليست مجرد بحث تاريخي، بل هي قراءة لمسار الوعي العربي في تربيته لأجياله عبر الكلمة الجميلة.